حكاية الكسلان والقرد



بقلم : أ. عبد الحميد عبد المقصود
رسوم : أ. إسماعيل دياب
إشراف : أ. حمدي مصطفى

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

يُحْكَى أَنَّ الْخَلِيفَةَ (هارونَ الرَّشيدَ) كانَ فى مَجْلسه ذاتَ يومٍ ، فَدخلَ عليه أحدُ خَدم زوجته السَّيدَة (زُبيْدَة) وبيَده تاجٌ من الذَّهب الأَحْمرِ ، المُرصَّعِ بالْجواهر ، وقالَ له :

ـ يا أَميرَ الْمؤمنينَ ، إنَّ السيدةَ (زُبيْدَةَ) تقولُ لكَ إنَّها قد صَنعتْ هذا التَّاجَ من الذهب ، وزيَّنته بالْجواهر النادرَة ، وهى تَحتاجُ إلى جوهرَة كبيرة ، لتَضعها فى أَعْلاهُ ، وقدْ بحَثتْ فى جواهرها ، فلمْ تجدْ هذه الْجوهرةَ التى تُناسبُه ..

فتأَمَّلَ الْخليفةُ التاجَ مُبْديًا إعْجابَهُ بجماله ، ثم نظرَ إلى مَن حوْله من الحاشيَة والأَتْباع قائلاً :

ـ ابْحثوا فى (بغدادَ) عن الجوهرَة الْكبيرَة ، التى تُناسبُ تاجَ زوْجتى (زُبيْدَة) ..

وانْطلقَ الأَعوانُ يبحثونَ عن الجوْهرة المطْلوبَة ، فلمْ يجدوا لَها أثرًا لَدَى تجَّار الجواهر ..

فلما أَبْلغوا الخليفةَ بذلك بانَ الْغضبُ فى وجْهه وقالَ :

ـ كيْفَ أكونُ خليفةً ؛ وملكًا لملوك الأَرْض ، وأَعجزُ عن



إيجاد جوهرةٍ لزوْجَتى ؟! اسْألوا التجّارَ أيْنَ يمكِنُ أَنْ أَجدَ هذه الجوْهَرةَ ؟!

فلما سألوا التجّارَ قالوا لهمْ :

ـ لنْ يجدَ الخَليفةُ هذه الجَوْهرةَ إلاّ عنْدَ رجُلٍ من (الْبصْرةِ) يُسَمّى (أَبا مُحمّدٍ الْكَسْلانَ) ..

فلمّا أخْبَروا الخليفةَ بذلكَ أَرْسلَ سيّافَهُ (مَسْرور) برسالَةٍ إلى والِى (الْبَصْرةِ) يأْمُرهُ فيها بإِرْسالِ التاجرِ (أَبِى محمد الكَسْلانِ) إلى (بغْدادَ) على وجهِ السرْعَةِ ..

ولَمّا وصلَ (مَسْرورٌ) برسالةِ الخَليفَةِ (هارونَ الرشيدِ) إلى وَالِى (الْبَصْرةِ) قالَ :

ـ سمعًا وطاعةً ..

وأرسلَ إلى (أبى محمد الكَسْلان) فى قصره من يخبره بأنَّ الخليفة (هارونَ الرشيد) يريدُ منه أن يسافر إلى (بغدادَ) ومعه جوهرةٌ كبيرةٌ تصلحُ لتاجِ زوجته ..

فقال (الكسلانُ) :

سمعًا وطاعةً لمولاى أميرِ المؤمنين ..

وحملَ (أبو محمد الكسلانُ) معه الكثيرَ من الجواهر والتُّحف الغريبة والنادرة ، وسافر مع رسولِ الخليفة إلى (بغدادَ) ودخلَ على الخليفة (هارونَ الرشيد) فى قصره ، فأحسنَ الخليفةُ استقبالَه ، ثم أمرهُ بالجلوس .

فقالَ (أبو محمد الكسلانُ) :

ـ اسمح لى يا أمير المؤمنين ، أن أقدِّم لك بعض الهدايا التى جئتُ بها معى ، قبلَ أن أعرضَ عليكَ جواهرى لتختار منها ما تشاءُ ..

فقالَ الخليفةُ :



ـ لا بأسَ يا (كسْلانُ) ..

فأَخْرَجَ (الكسْلانُ) منْ بضاعتِه صُندوقًا مُذهَبًا، وفتحَهُ، فأخْرجَ منه أشجارَ تفّاحٍ من الذهبِ، أوْراقُها من الزَبرجدِ والزُمرُّدِ الأخضرِ، وثمارُها من الياقوتِ الأحْمرِ والأصفرِ ..

فتعجّبَ الخليفةُ والحاضرونَ منْ ذلكَ ..

ثُمَّ أَخرجَ (الكسلانُ) صُنْدوقًا آخرَ، وأخْرجَ منهُ خيْمةً من الحْريرِ مُكلّلَةً باللُّؤلُؤِ والياقوتِ والزُمرُّدِ وكُلِّ أنواعِ الجْواهرِ، وقَوائمُ هذه الخيْمةِ منْ خشبِ الأبنوسِ، وقدْ رُسمتْ على

الخَيْمةَ كُلُّ صُوَرِ الطيورِ والْحيواناتِ بالْجواهرِ والأحْجارِ الكَرِيمَةِ ..

فأعْجبَ الخليفةُ والحاضرون بالخَيمةِ إعْجابًا شَديدًا ، وقالَ (الكَسْلانُ) :

- لوْ أَذِنَ لى أميرُ المؤمنينَ فرَجْتهُ على عجَائِبَ وغَرائِبَ هذه الخيْمَةِ ..

فقالَ الْخليفةُ :

- قدْ أذنْتُ لكَ .. أَرِنى عجَائبكَ ..

فقالَ (الكسْلانُ) :

- سمْعًا وطاعةً ..

وبدأَ (الكسْلانُ) يُحرِّكُ شفتيْه ، وينْظُرُ إلى ستائِرِ الْقَصرِ فأخذَتِ السَّتائِرُ تتحَرّكُ مُقْتَربَةً منْهُ ، ثم أشارَ إليها فابْتعدتْ عنه ..

ثُمَّ نظرَ إلى صُورِ الحيواناتِ والطُّيورِ ، وأَخذَ يُحرِّكُ شفتيْه فأَخذتْ هذه الطيورُ تغرِّدُ ، وصاحتِ الْحيواناتُ مُتَجاوِبَةً معهُ ..

فازدادت دهشة الحاضرين وقال الخليفة :

ـ من أين لك كل هذا يا رجل ، وأنت ما تعرف إلا باسم (أبى محمد الكسلان) وقد أخبرونى أن أباك مات فقيرا ولم يترك لك شيئا ؟!

فقال (الكسلان) :

ـ لو أذن أمير المؤمنين حدثته بقصتى ، وهى أعجب من العجب . .

فقال الخليفة :

ـ قد أذنت لك . .وانطلق (الكسلان) يروى حكايته قائلا :

ـ كانَ أَبى حلاَّقًا فقيرًا ؛ وقد ماتَ ولمْ يتركْ لى شيئًا ، وكُنْتُ أنا فى صِغرى أكسلَ إنْسان على وجه الأَرْض ، وقدْ بلغَ منْ كسلى أَنَّنى إذا كُنْتُ نائمًا فى الحَرِّ ، وطَلَعت الشمْسُ وأَخذتْ تلفحُنى بحرِّها الشَّديد ، فإننى اكسلُ عنِ القيامِ من الشمس والانتقال إلى الظِّلِّ ، وقد استمرَّ بى الحالُ كذلكَ ، حتى بلغْتُ الخمسةَ عشر عاما منْ عُمرى المْديد ، وكانتْ أُمِّى تخدمُ الناسَ حتى تُطْعمنى وتسقينى وأنا راقدٌ فى كسلٍ ..

وذاتَ يومٍ دخلَتْ علىَّ أُمى ومَعها خمْسةُ دراهمَ منَ الفضَّة وقالت :

ـ يا ولَدى لقدْ علمتُ أنَّ الشيخَ المظفرَ عزمَ على السَّفرِ بتجارته إلى الصِّينِ (وكانَ رجلاً طيبًا يعطفُ على الفقراء) .

خُذْ هذه الدراهم يا ولَدى واطْلُبْ منه أنْ يشترِىَ لكَ شيئًا مِنَ الصِّينِ ، ، لعلَّكَ تُتاجرُ فيه وتربحَ ..

وكسلْتُ عنِ القْيامِ معها ، فغضبتْ أُمِّى غضبًا شديدًا وقالتْ :

ـ إنْ لمْ تأخُذْ هذه الدَّراهِمَ ، وتذْهبَ إلى الشيخِ (المظَفَّرِ) فلَنْ أُطْعِمَكَ ولنْ أسْقِيَكَ ، بلْ سأترُكُكَ تمُوتُ جوعًا وعطَشًا ..

وتوقَّفَ (الكسْلانُ) قليلاً ، ثمْ واصَلَ حكايتَهُ قائلاً :

ـ فلمَّا سمِعتُ كلامَ أُمِّى خِفْتُ من تهْديدِها ، وقلتُ لها : ساعِدينى على النُّهوضِ يا أُمِّى ، فأخَذَتْ بيَدى وأقْعدَتْنى ، فقلْتُ لها : الآنَ خُذِى بِيَدى حتى أَقِفَ .. فلما أوْقَفَتْنى قلتُ لها : أَسْنِدينى حتى أذْهَبَ للشيخِ (المُظَفَّرِ) فأخَذَتْ بيدِى وأَسْندَتْنى ..

وسِرْتُ أَتعثَّرُ فى كَسَلى ، حتَّى وصلْنا إلى شاطئِ الْبحرِ ، وكانتِ المركَبُ التى سيُسافرُ فيها الشَّيْخُ المظفَّرُ مع التُّجارِ تتأهَّبُ للرحيلِ ، فقلْتُ للشَّيْخِ (المظفرِ) :

ـ خذْ هذه الدَّراهمَ ، واشترِ لى شيْئًا من بلادِ الصِّينِ ، عسى أَنْ أُتاجِرَ فيه وأَربحَ .. فتعجَّبَ التجارُ ، وقال الشيخُ (المظفَّرُ) بطيبةٍ :

هاتِ يا ولَدى الدَّراهمَ على بركةِ اللَّه ..

ورجعْتُ مع أُمى إلى دارِنا الْفقيرةِ ، وسافرَ الشيخُ مع التجَّارِ إلى (الصينِ) ، فباعَ واشترى ، ثم قرَّرَ الرجوعَ مع التجارِ إلى (الْبصْرةِ) وقدْ نسِىَ أَنْ يشتَرِىَ لى شيْئًا أُتاجرُ فيه ، فسارَتْ بهم المركَبُ فى الْبحرِ ثلاثةَ أيامٍ ، ثم تذكَّرَ الشيْخُ دراهِمى ، فقالَ لمَنْ معهُ من التجَّارِ :

ـ لا بُدَّ لنا من الرُّجُوعِ إلى الصينِ ، حتى أَشْتَرِىَ شيْئًا «للكَسْلانِ» بدراهمه ..

فتَعجَّبَ التُّجارُ وقَالُوا :



ـ نُسَافِرُ ثلاثَةَ أيَّامٍ ذهابًا وثلاثَةً فى الْعودَةِ من أجلِ أنْ نشْترِى بخمْسَةِ دراهِم ؟! خُذْ من كُلِّ واحدٍ منَّا ضِعْفَ ربحِ الخَمسةِ دراهِمَ ، ودعْنا نعُودُ إلى بلادنَا . .

فوافقَ الشيْخُ على اقْتراحِهِم ، وجمعُوا لى أموالاً كثيرةً . . وسارَتْ بهِم الْمركَبُ ، حتَّى وصلُوا إلى جزيرةٍ فنزَلَ الشيْخُ والتُّجارِ يبيعُونَ ويشترُونَ جواهِرَ وأحجارًا كريمَةً . .

ورأى الشَّيْخُ (الْمظفر) رجلاً معهُ قرودٌ كثيرةٌ ، وبينهم

قِرْدٌ بَائِسٌ مَنْحُولُ الشَّعْرِ ، وكُلَّمَا غَفَلَ الرَّجُلُ عَنِ القُرُودِ أَمْسَكَتِ القُرُودُ ذَلِكَ القِرْدَ البَائِسَ وضَرَبَتْهُ ، فَيَصْرُخُ مُتَأَلِّمًا ، فأَشْفَقَ الشَّيْخُ (الْمُظَفَّرُ) عَلَى القِرْدِ ، وقَالَ لِصَاحِبِهِ:

ـ هَلْ تَبِيعُنِى هَذَا القِرْدَ بِخَمْسَةِ دَرَاهِمَ مِنْ أَجْلِ صَبِىٍّ فَقِيرٍ ؟

فقَالَ صَاحِبُ القِرْدِ :

ـ خُذْهُ وبَارَكَ اللَّهُ لَهُ فِيهِ . .

ورَحَلَتِ الْمَرْكَبُ بِالشَّيْخِ (الْمُظَفَّرِ) والتُّجَّارِ مَعَهُمُ القِرْدُ ، حَتَّى وَصَلُوا إِلَى جَزِيرَةٍ أُخْرَى تُسَمَّى جَزِيرَةَ اللُّؤْلُؤِ ، فَرَسَتِ الْمَرْكَبُ عَلَيْهَا ، ونَزَلَ التُّجَّارُ يَبِيعُونَ ويَشْتَرُونَ ، ويَسْتَأْجِرُونَ الغَطَّاسِينَ لِلغَوْصِ واسْتِخْرَاجِ اللُّؤْلُؤِ والْمَرْجَانِ والْجَوَاهِرِ الثَّمِينَةِ مِنْ قَاعِ الْبَحْرِ . .

ولَمَّا رَأَى القِرْدُ مَا يَفْعَلُهُ الغَطَّاسُونَ أَلْقَى بِنَفْسِهِ فِى الْمَاءِ ثُمَّ خَرَجَ مَعَ الغَطَّاسِينَ ومَعَهُ جَوَاهِرُ نَفِيسَةٌ ، فَأَلْقَاهَا أَمَامَ الشَّيْخِ (الْمُظَفَّرِ) فَتَعَجَّبَ الْجَمِيعُ ، وقَالَ الشَّيْخُ :

ـ هَذَا القِرْدُ وَرَاءَهُ سِرٌّ عَظِيمٌ . .

وأَحْضَرَ القِرْدُ كَمِّيَّةً كَبِيرَةً جِدًّا مِنَ الْجَوَاهِرِ ، فَقَالَ الشَّيْخُ (الْمُظَفَّرُ) :



ـ هَذَا رِزْقٌ سَاقَهُ اللَّهُ (تعالى) إلى ذَلِكَ الصَّبِيِّ الفَقِيرِ ، بِبَرَكَةِ دَرَاهِمِهِ الْخَمسَةِ ، ولا بُدَّ أن أُحَافِظَ لَهُ عَلَيْهَا حتى نَصِلَ ..

وعَبَّأَ الشيخُ هذه الْجَواهرَ في عدةِ صناديق .. ثُمَّ واصلت الْمَركَبُ سيرَها ، حَتَّى وَصَلَت إلى جزيرةٍ ورستْ عَلَيها فنزلَ الشيخُ (الْمُظفر) والتُجار يبيعُونَ ويشترُونَ ، وهُم لا يَعْلمُونَ أنَّ سُكَّانَ هذه الْجزيرة من آكلي لُحُومِ الْبَشَرِ ، فَلمَّا رَأَوُا التجارَ قَبَضُوا عليهِم وقيدوهم بالْحبالِ وتَرَكُوهُمْ حتى يأكُلُوهُمْ في الصَّبَاحِ ..

وفى أثناء الليلِ تسلَّلَ القردُ إلى الشيخ (المظفرِ) وفكَّ قيودَه ، فأسرع الشيخُ إلى بقيةِ التجارِ وخلَّصهم من قيودِهم ، وأسرع التجارُ إلى سفينتِهم وغادروا الجزيرةَ ، غيرَ مصدِّقين بنجاتِهم ، وقال الشيخُ (المظفرُ) :

ـ لقد خلَّصنا هذا القردُ من الموتِ بإرادة اللَّه (تعالى) وقدرتِه ؛ ولهذا فقد أخرجتُ له من مالى ألفَ دينارٍ ذهبًا ..

وقال بقيَّةُ التجارِ :

ـ ونحنُ أيضًا كلٌّ واحدٍ منَّا يخرجُ له ألفَ دينارٍ من ماله ..

وجمعَ الشيخُ (المظفرُ) المالَ من التجارِ ، ووضعَه فى صندوقٍ .. ثم واصلت السفينةُ رحلتَها ، حتى عادت إلى ميناءِ (البصرةِ) سالمةً ..

وواصلَ (الكسلانُ) حكايتَه قائلاً :

ـ وفى ذلكَ الوقتُ كنتُ لا أزالُ نائمًا فى الشمسِ ـ كعادتى ـ فأقبلتْ على أمى وقالتْ :

ـ لقد وصلَ الشيخُ (المظفرُ) بتجارتِه ، فقمْ يا بنىَّ



واسألْهُ عمَّا اشْتراهُ لكَ بالدَّراهمِ الْخمْسةِ ..

وساعَدتنى أُمى علَى القيَامِ ، وأَسْندتْنى حَتى وَصلْتُ إلى الشَّيخِ (الْمُظفَّرِ) فلمَّا رآنى بَشَّ فى وَجْهى وقَالَ :

أَهْلاً بِمنْ دَراهِمهُ كَانتْ سَبباً لنَجاتنَا كُلِّنَا من الْموتِ ، بإِذْنِ اللَّهِ (تعالى) ..

فَظنَنْتُ أنَّهُ يَسْخَرُ منِّى ومنْ دراهِمى ، وقَدَّمَ لى الشيْخُ القرْدَ قَائلاً :

ـ خُذْ هذَا القرْدَ ، فإنِّى اشْتريْتُهُ لَكَ بخَمْسَةِ دَرَاهمَ ، وانْتظرْنى فى بيْتكَ حتَى آتى إلَيكَ .. فأَخذْتُ القرْدَ

وتَوَجَّهْتُ إلى بَيْتى ، وأَنَا أَقُولُ مُتهكِّمًا :

ـ قِردٌ ؟! واللَّهِ إنَّهَا تجارةٌ عظِيمَةٌ ! انظُرى إلى تجارَتى يا أُمى !

وبَيْنمَا أَنَا جَالِسٌ فى بيْتى جَاءنِى الشَيخُ (الْمُظَفَّرُ) ومعهُ اثْنَانِ من الخَدَمِ يحْمِلانِ عِدَّةَ صَنَادِيق ، فَوَضَعها الشيخُ أَمَامى وقَالَ :

ـ خُذْ هَذِه الأَموالَ والجَواهِرَ يا بُنَيَّ ، فكُلُّهَا مِلْكُكَ ..

فَلَمَّا سأَلْتُهُ عن مَصْدرِها ، حَكَى لى مَا حَدَثَ ، وقَالَ :

هَذَا رِزْقٌ سَاقَهُ اللَّهُ (تعالَى) إِلَيْكَ على يَدَىْ هذا القِرْدِ ، فَحَافِظْ عَلَيْهِ ولا تُفَرِّطْ فيه أَبدًا لأَنَّ فيهِ سرًّا عَظِيمًا ..

ومِنْ شِدَّةِ فَرْحَتى احتضنْتُ القِرْدَ ، ولَمْ أَعُدْ أُفَارِقُهُ ولا يُفَارِقُنى أَبدًا ، بَعْدَ أَنْ كَانَ سَببًا لِثَرائى ..

(تمَّتْ)

رقم الإيداع : ٥١٧٠ / ٢٠٠٣
الترقيم الدولى : ٨ - ٨٨٥ - ٢٦٦ - ٩٧٧